متشابه القرآن الكريم

الأستاذة:حليمة تواتي
قسم اللغة العربية و آداب
جامعة أبي بكر بلقا يد – تلمسان

إن إعجاز القرآن الكريم لم يكن بفصاحته و بلاغته و علو ألفاظه و شرف معانيه فحسب ، وإنما ظهر إعجازه أيضا في ترتيبه،و نظم آياته و تفننه في بداعة تنقلاته من فن إلى آخر بطرق متعددة و الإتيان آت عند التكرير تفاديا وتجنبا لثقل تكرير الكلم،ما عدا المقامات التي تقتضي التكرير،من تهويل وترهيب ونحوه، وقد يقتضي المقام شيئين متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ مخيرا في أحدهما و له ذكرهما تفننا[1]

وقد وقع في القرآن الكريم الكثير من هذا ، لكن مع الإبداع في اختيار ما يناسب المقام من ألفاظ، و هذا ما أسماه الأئمة المصنفون:*بعلم متشابه القرآن*

- وان كان في حقيقة الأمر قد أغفلوه في تفاسيرهم للقرآن الكريم
- في حين نجده قد حظي باهتمام بعض علماء اللغة، بل و قد أفردوه بالتصنيف [2]

وفي مقدمتهم عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي (ت 420هـ) الذي تناول الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة و المختلفة و حروفها المتشابهة في كتابه *درّة التنزيل و غرة التأويل*و قد ذكر الاسكافي في كتابه أنه أول من قرع باب متشابه القرآن .

و ممن صنف في هذا العلم بعد الخطيب الاسكافي هو أبو القاسم برهان الدين الكرماني الملقب بتاج القراء (ت 500 هـ) في كتابه * البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة و البيان*

كما صنف في هذا العلم أيضا علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (ت 643 هـ) في كتابه *هداية المرتاب في المتشابه*، و لاح في الأفق العالم أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم بن الزبير الغرناطي الحافظ النحوي(ت 708 هـ) بكتابه *ملاك التأويل القاطع ذوي الإلحاد و التعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل*(05)

و هناك من اكتفى بالإشارة إلى المتشابه فقط بإيجاز أثناء تدبره نظم القرآن الكريم، و لم يفرده بالتصنيف أمثال بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794 هـ) في كتابه *البرهان في علوم القرآن*(3)

01) تعريف متشابه القرآن الكريم:

عرفه الزركشي قائلا:«هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى،و فواصل مختلفة،و يكثر في إيراد القصص و الأنبياء،و حكمته التصرف في الكلام و إتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به و متكررا (07) و يعني ذلك إعادة المعاني بنوع من التغيير و التفنن في الترتيب،و التجدد في الأسلوب حتى و إن كانت القصة نفسها وردت في موضعين فإننا نستشف مواطن التوافق و التخالف بينهما ،و لو كان ما يختلفان فيه هي الفاصلة فقط.(4)

بالإضافة إلى ذلك فإننا نفهم من كلام الزركشي أن متشابه القرآن الكريم أنواع و ضروب. فما هي أضرب متشابه القرآن الكريم ؟

02) أضرب متشابه القرآن:

حصر الزركشي علم متشابه القرآن الكريم في ثمانية أضرب هي:

1) ما يشتبه بالتقديم و التأخير:

لقد اشتمل القرآن الكريم على عدد من الآيات المتشابهة في المعنى المختلفة في المبنى بالتقديم و التأخير. ومن ذلك على سبيل المثال- لا الحصر – سورة الفاتحة،مطلع الكتاب العزيز،ما يستوقفنا فيها،هو ما افتتحت به أي قوله عز و جل «الحمد لله» فالحمد لله هو الثناء على الجميل،و الحمد هو لله عز و جل على الصفات التي انفرد بها سبحانه و تعالى، سواء الذاتية كالعلم و القدرة أو صفات الأفعال كالخلق و الارزاق و غيرها. و مشروعية حمده سبحانه و تعالى

في ابتداء الأمور و ختامها متقرر معلوم،فحتى بلغاء العرب كانوا لا يفتتحون خطبهم و كلامهم إلا بالثناء و الحمد ، و من لم يفعل ذلك لقب بالأبتر و خطبته بالبتراء(5)

و قد وردت هذه الآية«الحمد لله» بتقديم لفظة«الحمد»في خمس سور هي الفاتحة و الأنعام و الكهف و سبأ و فاطر و كانت في بدايتهم بأسلوب واحد و معنى واحد مع اختلاف طفيف في الفاصلة ، بينما يبدو الفرق جليا و ظاهرا إذا ما قارنا الآية «الحمد لله » من سورة الفاتحة،مع ما ورد في الآية 36 من سورة الجاثية في قوله عز وجل «ولله الحمد» فالتشابه الحاصل في الموضعين واضح وهو حملهما معنى واحد وهو الثناء على الله عز وجل ثناءا جامعا لوصفه .

و الجملتان اسميتان تتكون كل واحدة من مبتدأ مرفوع هي لفظة (الحمد)،و (لله) خبره،و الأصل فيه النصب على المفعولية المطلقة لفعل محذوف و التقدير نحمده حمدا .

أما الاختلاف الحاصل بينهما فيتمثل في ظاهرة التقديم و التأخير بين المبتدأ و الخبر الوارد في الآيتين (الحمد لله) و (ولله الحمد)،ولعل السبب في ذلك كون سورة الفاتحة هي أول سورة و مطلع كتابه فناسب ذلك افتتاحها بحمده

جل جلاله و الأمر بين.كما يمكن أن يكون السبب كون اعتراف المؤمن و علمه بانفراد جل جلاله بالخلق و الأمرو غيرها من الصفات المذكورة ،وليس موضع توبيخ أو تقريع فناسب البدء بالحمد و الثناء.

أما التأخير الوارد في سورة الجاثية (ولله الحمد) فسببه ليس التركيب اللفظي فقط بل قد يعرض من جهة المعنى أيضا ، أي أن الآية جاءت على تقدير الجواب، فبعد تكذيب الكافر الجاحد لأخبار الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كأنه قال لهم :لمن الحمد الآن ؟ فجاء الجواب على ذلك السؤال *لله الحمد *(6)

2)ما يشتبه بإبدال حرف بحرف:

وقد وقع منه في القرآن الكريم كثير،نذكر على سبيل المثال ما جاء في الآية 58 من سورة البقرة قوله عز وجل : ﴿**و إذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا و ادخلوا الباب سجدا و قولوا حطة يغفر لكم خطاياكم و سنزيد المحسنين**﴾ و ما جاء في الآية 161 من سورة الأعراف قوله عز وجل ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية و كلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة،و ادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئتكم و سنزيد المحسنين** ﴾

يتمثل التشابه بين الآيتين في أنهما تحملان نفس المضمون ونفس المناسبة وهي الإشارة إلى قصة بني إسرائيل لما نزلوا بمدينة قادش و أصبحوا على حدود أرض كنعان المقدسة التي وعدهم الله بها بعد خروجهم من مصر، فأرسل موسى عليه السلام اثني عشرة رجلا ليتحسسوا الأرض فوجدوها ذات خيرات،و لما أمر موسى بامتلاكها أشاع عشرة رجال ممن بعثهم الرعب في نفوس بني إسرائيل لمنعهم من القتال،فاستشفع لهم موسى عليه السلام فعفا الله عنهم لكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة.إلا يوشع بن نون و كالب بن يفنة لأنهما لم يثيرا الفتنة وحدثا بم رأياه(7)

أما الاختلاف الحاصل فهو إبدال حرف الفاء الوارد في آية البقرة في قوله عز وجل﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ بحرف الواو في آية الأعراف في قولهو ﴿كلوا منها حيث شئتم ﴾.

و لعل سبب ذلك راجع إلى أن جملة البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدل على ذلك،بدليل أن فعل *قيل* أسند في سورة البقرة على ضمير الجلالة.*و إذ قلنا *لظهور أن هذا القول لا يصدر إلا من الله تعالى فكانت الجملة الواردة سورة البقرة أولى أن تكون بفاء التعقيب من واو العطف التي تفيد الربط و الجمع،في حين يرجع مجيء جملة الأعراف بالواو،لأن آيات الأعراف سيقت لمجرد العبرة من قصة بني إسرائيل.

3)ما يشتبه أن يكون في موضع على نظم وفي آخر على عكسه:

و هو يشبه رد العجز إلى الصدر،وهو قريب من ضرب التقديم و التأخير،من أمثلته قوله عز وجل في الآية 135 من سورة النساء﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ﴾ والثانية قوله عز وجل في الآية 08 من سورة المائدة ﴿ يا أيها الطين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ (8)

التشابه بين الآيتين واضح و جلي،فمن ناحية المضمون فهو عبارة عن دعوة للعدل في الحكم و أداء الشهادة بالحق لأنه قوام صلاح المجتمع الإسلامي،ومن ناحية الأسلوب فقد تم الاستفتاح فيها بنداء تبعه أمر بوجوب القيام بالعدل لكن مع هذه التشابهات نلمس تغير النظم بين الموضعين إذ جاء في الموضع الثاني على عكس ما جاء في الأول،فآية النساء قال فيها عز وجل﴿ قوامين بالقسط شهداء لله﴾ أما آية المائدة فورد فيها ﴿ قوامين لله شهداء بالقسط﴾ و السبب في ذلك أن آية النساء جاءت عقب آيات القضاء في الحقوق ثم

بقوله تعالى ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾. أما آية السجدة فقد قيلت في الفاسقين [14]

لأنها سبقت بقوله عز وجل ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ والفسق قد يطلق على ما دون الكفر، فلما صرح بالكفر الذي هو أعظم من الفسق كان العذاب أشد وهو الحريق، لأن الحريق هو النار البالغة في الإحراق، فناسب كل صنف عذابه الذي ذكر معه.

ولقد عمد الله عز وجل أثناء تكراره لبعض القصص القرآني، وبعض المواضيع المختلفة إلى التنويع والتجديد والتغيير، فنجد القصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، لكن في صور مختلفة، إذ نراه لا يكرر الآية كما ذكرت من قبل، بل يذكر في موطن ما يطوى ذكره في آخر، ويفصل في موطن ما يوجز في آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر، ويغير أحيانا في التعبيرات، ونظم الكلام تغييرا لا يخل بالمعنى، وهذا هو علو مرتبة بلاغة القرآن الكريم، وقوة إعجازه.[15]

الهوامش :

1)- الطاهر بن عاشور- التحرير و التنوير - الدار التونسية للنشر(د.ت) ج 1 ص 118

2)- ابن الزبير الغرناطي – ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد و التعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل – ج 1 – ط 1 (1403) دار الغرب الإسلامي ص 106

3) – الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله – البرهان في علوم القرآن – دار الكتب العلمية ط 1 ج1 ص 112

4) المصدر نفسه ص 114

5) التحرير و التنوير ج 1 ص 156

6) ملاك التأويل ج1 ص 158

7) التحرير و التنوير ج 1 ص 428

8 – 9) البرهان في علوم القرآن ج 1 ص 118 – 124

10) التحرير و التنوير ص 123 من ج 2

11) محمد طيب إبراهيم – إعراب القرآن الكريم – دار النفائس للطباعة ط/1 ص 176

12) التحرير و التنوير ج 3 / 211

13) طالبي عبد الحفيظ – دروس في الصرف العربي – دار الغرب للنشر ط1 / 2002 ص 132

14) السمرائي فاضل صالح – التعبير القرآني – جامعة بغداد (د.ت) ص 242

15) مناع قطان – مباحث في علوم القرآن – مؤسسة الرسالة. ط 24 . (د.ت) ص 308